ليلى مهيدرة

عيون القلب

قصص قصيرة

الكتاب : عيون القلب
المؤلفة : ليلى مهيدرة
تصميم الغلاف : شمس
الطبعة الثانية : يناير ٢٠١٣
الإيداع القانوني :31561 MO ٢٠١٢
ردمك : ٩٧٨-٩٩٥٤-٣١-٧٢٢-٨٥٠
المطبعة: Safi Graphe

الإهداء

لشخوصي

التي تعلن نفسها جهرا

وتقتسم الألم معي دهرا

وتبتسم

وترتسم

وحين يشتد صقيع الواقع

تموت قهرا

عيون القلب واختراق المسافات المحظورة

حميد ركاطة

تأتي مجموعة "عيون القلب" للقاصة ليلى مهيدرة في سياق انتعاش القصة القصيرة بالمغرب، إبداعا ونشرا خلال بداية الألفية الثالثة. وهي مجموعة مكونة من سبعة وعشرين نصا. اشتغلت فيها القاصة على التناص، والميتاسرد، والخاطرة. موظفة الحلم والمفارقة ضمن كتابة نفسية أبرزت هواجس الشخوص وتطلعاتهم، مستغورة أعماقهم ومكنون قلوبهم، رغبة في تفجير مكبوت الذات.

كما اتسمت بعض نصوص المجموعة بنفس شعري أبرز انسيابا وتداعيا للعديد من الصور ضمن متون الحكايات ومنح حبكتها جمالية عززها الارتكاز على الوصف والنهايات غير المتوقعة والموجعة في غالب الأحيان.

لقد رصدت الكاتبة من خلال مجموعتها العلاقات الإنسانية في لحظاتها المنفلتة من عقال زمن هارب، لتتحول إلى نسيج من الأحداث القصصية التي تحمل في طياتها أحاسيس متضاربة: من حب، وحزن، وفرح، وجنون، وقلق، الأمر الذي عرى عن عمق الانهزام الإنساني أمام إكراهات الواقع المرير.

كما توسلت القاصة بالسخرية لانتقاد مواقف شخوصها، ناهيك عن تدخلات السارد القلقة ما أبرز تماهيا لافتا إلى حد اختراق مسافات محظورة من خلال اللجوء إلى الميتاسرد في العديد من القصص: (خطوط عمودية، أنا وشريكي، مملكة الأحلام) إلى حد الاقتناع بوهم الفكرة المهيمنة أو الحدث المرصود، عززه الدخول المباشر في الصراع حد الذوبان في بوتقة الحدث الواحد.

كما لمسنا توظيفا للخاطرة في تداعيها غير مفرطة أكسبت الكتابة تنوعا، وتضمينا سلسا يحمل على العودة إلى القيم الفاضلة المبرزة لإنسانية مفتقدة في زمن الموت والعنف، والجنون.

إنها نصوص تحمل في طياتها العديد من الرسائل، وتسمو إلى ذائقة قارئها بطرحها الوجودي العميق، المتماس مع تأمل أبرز الضعف الإنساني وخيانة الإحساس، والتوقع. وهو ما شكل صورة مصغرة لواقع فئة مسحوقة اصطدمت أحلامها على محك واقع حفر أخاديده بمفارقاته في ذاكرتهم الفردية والجماعية (الوثيقة الوهمية، التراجع عن خطة التراجع، رصاصة الرحمة)، وهي نصوص ارتجفت من الألم والعقوق والفقد والحزن والانتظار، بهواجس مفعمة بالوهم والجنون.

مجموعة "عيون القلب" لا شك أنها ستلقى قبولا طيبا سواء من طرف القراء أو النقاد على السواء.

خنيفرة في ١٨/١٠/٢٠١٢

التراجع لم يعد مجرد استراتيجية حربية بقدر ما صار نمط عيش حتى أصبحنا نتراجع دون أن ندري لم !؟

خطة التراجع عن قرار التراجع

لم يخبروه بأن الحرب انتهت أو ربما أخبروه ونسي، وظل يرسم الخطة للهجوم الأخير مبشرا نفسه بتحرير الباقي من أرضه وأسرى لم يكونوا إلا جنودا تحت إمرته رفضوا القرار الصادر من القيادة العليا وقرروا الهجوم، خاصة وأن ملامح النصر كانت بادية لهم، بينما هو ظل بين صوته المسموع يزمجر لاهثا وراءهم يدعوهم للامتثال للأوامر العسكرية، وصوت خفي يدعوه لكي بتقدمهم.

- لم نكن مهزومين فلِمَ نتراجع؟

ظل يرددها حتى أسكته صوت القائد:

- يبدو انك كبرت في السن وتحتاج للراحة مقدم حسام.

حسام إيه... رددها بداخله وأنا لم أكن إلا عصا في أيديكم تقولون اضرب فأضرب، وتقولون أحجم فأحجم.

احتضن انهزامه والقلادة العسكرية، وعاد إلى بيته. تناسى كما تناسوا هم سنين عمله وكده واجتهاده لكنه ظل يذكر أبناءه كما يناديهم دوما جنودا أحرارا. كان طوال ليالي الحرب الطويلة يحكي لهم عن الأرض والعرض وعن الواجب وعن الوطن، لا يدري... لم يحس أنه خذلهم بقرار التراجع كلما تذكر تلك الليلة إلا وعاد ليستجمع أوراقه ويرسم الخطة.

هي زينب التي تحملت زمجراته وهواجسه وحكاياته. هي وحدها من تعودت أن تلمه من فوق أوراقه ليستريح على السرير المتهرئ كما البيت وكما الأحلام التي تبخرت بعد ذلك اليوم المشئوم. المعاش القليل ونظرات الناس التي لا ترحم، فزوجها يحمل وزر حرب لم يكن فيها إلا كحبة رمل في صحراء، وهو الآن يدفع ضريبة قيمة منحها الناس له اعتباطا كلما كان يمر بينهم فيهللوا له كأنه صلاح الدين وهو عائد من القيادة كل مساء.

كان البطل الخيالي في عقول رواد المقهى والناس البسطاء. كان أمامهم النصر مجسدا وبانكساره انكسرت أحلامهم وطموحاتهم فأصدروا حكمهم بتجريمه، فصارت زينب من المغضوب عليهم، ما دامت قد قبلت أن تعيش مع هذا الخائن المتراجع. حاولت مرارا أن تفهمهم لكن هناك دائما ذلك الأصبع الذي يرفض أن يشير إلى

عجزهم عن فهم ما حدث، فتظل هي ضحية نظراتهم الغامزة وابتساماتهم الصفراء.

- لا تهتمي بهم، هم أناس لا يفقهون من الأمر شيئا.

هكذا أجابها ابنها الواعي المتعلم، كلمتان وحمل نفسه متذرعا بأمور لا تقبل التأجيل.

أمور تخص زوجته وأولاده. لم تعد زينب تبكي من الأمر وفقدت القدرة على الكلام إلا للضرورة القصوى، وصارت لا تجيد إلا الاستماع إلى حكايات زوجها عن الحرب والانتصار والانهزام وهو يرسم خطة التراجع عن قرار التراجع حتى صارت هي الأخرى تؤمن بها دون أن تدري. اقتربت منه أكثر وجلست إلى الطاولة بإصغاء تام.

بالنسبة له الأمر سيان فهو لم يعد يميز بين المسافات، مازال صوته عاليا وعيناه زائغتين بين الأوراق المترامية فوق الطاولة وبين نظرات زوجته الشاخصة والتي بدأت تؤمن أن النصر آت لا محالة ومعه فرج قريب قد يعيد مجدا اندثر.

الدولاب

فتح عينيه في تثاقل شديد ومد بصره في كل أنحاء الغرفة. بدأ من السقف الذي غطت خيوط العنكبوت الرمادية بقايا الجير فيه، وصولا إلى الدولاب القديم.

كاد أن يبتسم وهو ينظر إليه، أحس أنه انتصاره الوحيد الذي قد يخلفه إن مات، فهذا الدولاب يستطيع أن يروي حكايته حين يعود غاضبا ويقذف ببابه حتى ترتعد جنبات الغرفة شبه الفارغة أو حين يقف أمامه لساعات طوال يريد أن يختار بين بذلتيه اليتيمتين إن كان على موعد ما، وغالبا ما يكون مع أحد مديري الشركات ممن تعود الاستقبال الحار والابتسامة العريضة وكلمة اعتذار على طلب الوظيفة الذي تقدم به.

ولدولابه حكاية، كان حين رآه لأول مرة أمام بيت أحد المستعمرين، شيئا جميلا اقترب منه، أغراه منظره تقرب منه السمسار..

- إنه من النوع الجيد، صاحب البيت أجنبي ويريد العودة إلى وطنه لو لم تكن الطريق بعيدة لحمله معه، أنت تعرف أغلب المستعمرين يعودون إلى بلدهم الآن و..

لم يكمل حديثه أسكته بحركة الواعي المقدر للظرف وسأل:

- كم يريد ثمنا له؟

طرح السؤال وكان قد أجاب نفسه عليه أنا سأشتريه... لن أمنح هذا المستعمر فرصة أخذ دولاب كهذا معه، قد يحمله فوق سيارته فهو صغير الحجم لن يكلفه الكثير.

أحس أن مصيره قد ارتبط بهذا الدولاب، إنها مسألة كرامة، يكفيه ما نهب من خيرات البلاد، لن أسمح له بحمله معه فهو مصنوع من خشب بلادي وبمهارة ابن الحرفة، إنها كرامتي، طريقتي في الحرب.

باع أشياء كثيرة يومها ودق أبوابا أكثر ليعود به آخر الليل على ظهره، كان انتصارا، وضعه بقوة، تكسرت إحدى أرجله، سقط، فقد توازنه وسقط هو الآخر.

كاد أن يضحك لولا الألم، يذكر يومها أنه رقد لمدة شهر، وقدمه بالجبس:

- ألم أقل لك أن حكايتنا واحدة؟..

قالها وهو يصلح الرجل المكسورة ..

مضت سنوات بعد ذلك وأزمات اضطر إلى بيع أشياء كثيرة، إلا هذا الدولاب :

- لا أحد يبيع نفسه ..

قالها وتنهد وعاد إلى غفوته .

قلم أحمر

قدره أن يحمل هذا الجبل بين أصابعه، قلما أحمر يريد من خلاله إعادة رسم هذا العالم ومحاولة تصحيح أوضاعه وضبط توزيع الثروات كما يجب أو لنقل كما يخيل إليه، فكل مشاكل العالم سببها غذاء وافر على طاولة ضخمة وصحن فارغ في مكان ما، ولعادة ما نجح في إعادة تشكيل الكرة الأرضية اقتصاديا، وإن كان يفشل دوما في تحقيق المعادلة الصعبة في فكره وتجاوز الخط الأحمر الفاصل بين النظريات وإخضاعها للواقع المعاش، تجربة عانى منها كثيرا ومازال يعاني وثقل القلم الأحمر بين أصابعه ما كان ليؤلمه وإن لم يستطع من خلاله أن يرسم له جوارب جديدة تقي أصابعه برودة طقس السنين ورغم ذاك وما دامت المعادلة قد تحققت على الورق وقبلها في مخيلته

وفكره فلا شك أنه يستطيع أن يسقطها على واقعه المعاش لكن كيف؟

لا يدري... فمنذ تخرجه بتفوق وحصوله على الدكتوراه في الاقتصاد والعلوم السياسية وفشله في الربط بين تفوقه وفرص العمل التي كانت إما أكبر من أن يصل اليها أو أصغر من أن تتقبله وهو يحاول جاهدا إعادة رسم الخريطة الاقتصادية لوطنه، وبالتالي إعادة رسم سياسة عالمية توازن بين مواقع القوى وتشير بعلامة صح على كل البقاع حتى وإن كالت الظروف الطبيعية تحول بينها وبين اخضرار الطبيعية واستعمارها بالتصحر لسنين

- هراء ...

كان هذا جواب العم إبراهيم، مناضل سياسي قديم ومعارض بمرتبة شرف لسنوات خلت، نجح في خلخلة أحزاب ومجالس وفشل في الأخير في أن يثبت أمامهم صحة قواه العقلية. فليس هناك أبشع من أن تدافع على فكرك، كما بكر تدافع على شرفها والناس ترجمها بعيونهم وترميها بالعهر، هراء .. هذه الكلمة الوحيدة من العم إبراهيم

القادرة على زحزحة الثقة بداخله ليعيد حساباته من جديد وربما لإسقاط أرقام ووقائع والوصول لمعطيات أخرى، هو يؤمن بقدرات هذا العجوز وتاريخه أو لعله هو الوحيد القادر على سماعه وإن كان لا يجيبه إلا بتلك الكلمة دوما..

- هراء ...

كلمة ما كانت لتزعجه بتاتا ما دامت تستطيع أن تؤجل مواجهته مع العالم الآخر المعاند والمتشبث برأيه والمتمثل في أصدقاء قدماء ورفقاء درس أنهكم العلم فترجلوا من قاطرته في وسط الطريق فكانت فرصتهم أكبر في إيجاد كرسي مريح في إدارة ما غير آبهين لأمثاله الذين أوصلهم القطار الى آخر محطة.

هذه المرة لم يجبه بسرعة، ظل مركزا في أكوام الورق أمامه يقلب الرسومات البيانية في كل اتجاه قبل أن يصرخ في وجهه:

- أصبت..

كلمة كررها كثيرا وبشكل متسرع فاجأه وجعله يعود لأوراق كمن يكتشف ما تنطوي عليه للمرة الأولى، تنقل ببصره ما بين العم إبراهيم وبينها وبداخله طاقة قد تجددت، وإن لفها بعض التردد أو ربما هو التعود على الخيبة، دقق كثيرا فيما بين يديه كأنما يبحث عن نقطة الانطلاق..

التفت للعم إبراهيم ليسأله المعونة لكنه لم يجد أمامه إلا سيارة إسعاف وأناسا بيض ملابسهم يكبلونه ويغلقون باب السيارة عليه بإحكام وينطلقون في رمشة عين كأنما لم يكونوا أبدا ..

انسلاخـــات

توقفت السيارة فجأة أمام الباب الزجاجي لتعلن انتهاء مسار سفر طويل، مسار من الألم وربما من العمر أيضا، هذا ما خيل إليّ وأنا أرقبه وهو يتعمد الانشغال بتفقد ملفي الطبي، حاولت التمتمة بشيء ما لعلي أكسر جدار الصمت، لكنه سارع بفتح باب السيارة.. ترجل ثم دعاني للترجل..

لم يكن يفصلني عن المبنى إلا خطوات بعدد الانسلاخات التي أتقنتها منذ اللحظة التي قررت فيها الموافقة والإذعان لقرار طبيبي المعالج، خطوت الخطوة الأولى؛ فارتسم أمامي انسلاخي عن عشي الصغير الذي طالما احتضن أفراحي وأحزاني ووجعي ويقيني..

خطوت خطوتي الثانية فتذكرت أمي وهي تودعني وتعدني أنه حين سأعود فستكون قد هيأت لي كل ما يخص الشهر الفضيل الذي لا يفصلنا عنه إلا أسبوعان تقريبا، كانت تعدني وكأنها تقول - إن عدت -

خطوتي الثالثة.. والأصعب وأنا أودع طفلتي الصغيرة التي بدأت تمارس طقوس أمومتها المبكرة أمامي وتحتضن أخاها الصغير وفي عينيها سؤال واحد:

- هل ستعودين؟

والآن موعدي مع الانسلاخ الأخير.. تذكرت زوجي وتمعنت في ملامحه لعلي أقتبس منها ما قد يعينني على التحمل..

كان منهمكا بحواره مع الطبيب بتظاهر شديد.. كان الحوار يخص ورقة تنقص الملف، أحسست أن الأمر كان نجدة من السماء لزوجي الذي ودعني مسرعا للبحث عن الورقة الضائعة وعن إحساس ضائع بالأمان أيضا..

نادى الطبيب على إحدى الممرضات وقدم لها الملف.. قال:

- حالة رقم كذا.. غرفة رقم كذا..

تقدمتني الممرضة وسرت وراءها مستجيبة لحركة من يديها تدعوني لذلك، دون اعتراض.. وكيف أعترض؟ وأنا لم أغدُ إلا رقما.. مجرد رقم، وكأي رقم.. تمنيت لأول مرة لو كنت مترددة في قراراتي، ضعيفة في شخصيتي، أو ربما فاقدة للوعي حتى لا أحس بما يجري حولي ولكي لا اشهد انسلاخي عن إنسانيتي واسمي وكياني، مشيت وراءها في ممر طويل تساقطت على جنباته ذكرياتي وابتساماتي وجولات قدتها بفخر شديد وظننت أنها خالدة وباقية ما بقيت الأنفاس بصدري.

دخلت الغرفة المخصصة لي وجلست على طرف السرير، وكأني أريد لمس أي شيء يجعلني أحس أنني ما زلت أمتلك ملكة الإحساس بما هو حولي، وللحظة طرأت في مخيلتي فكرة أن أقول شيئا.. أي شيء، المهم أن أجرب إمكانية النطق عندي، تمتمت بشيء ما لكن قبل أن أتمه كانت الممرضة قد غادرت المكان ولا أدري إن سمعتني أو أن صوتي لم يتعدَّ حدود حلقي، تكومت فوق السرير محتضنة أقدامي المتعبة باحثة عن فكرة حشوت بها رأسي طول الطريق؛ فالأمر لن يسرق من عمري إلا أسبوعا.. سبعة أيام فقط، فليشمروا على معداتهم

وليستنفروا مختبراتهم وليقيموا مهرجانهم التحليلي، فمهما كانت النتائج فالأمر لن يؤثر على حياتي فيما بعد وبعد خروجي من هنا ومهما كانت طريقة مغادرتي للمكان، فإن كان خيرا فهو رحمة من ربي، وإن كان غير ذلك فهو خطأ طبي لا أكثر ولا أقل..

المصارحة

كان يرقبني من وراء أكوام الورق، وكنت متوجسة من نظرته تلك، مع أنني أحاول تصنع القوة والشدة. أعتدل في جلسته مدليا رجليه من على سطح مكتبي.

استمررتُ أنا في تفحص صفحة ما كنت لأرىَ ما فيها، لأنني كنت منشغلة بالتفكير في ردة فعله.. بدا هادئا.. رزينا؛ كأنما يبحث عن سؤال يبادرني به أو عن تفسير مقنع لقراري هذا، ترجل وبدأ يمشي بخطوات موزونة أمامي كضابط شرطة محنك وأنا أقنع نفسي أنني أملك من المبررات ما يجعلني سيدة الموقف دائما.. تذكرت المقولة الشهيرة أن خير وسيلة للدفاع هي الهجوم.

سألت بثقة تامة:

- ماذا ستفعل الآن؟

- فيم؟
- أخبرتك أنك ملزم بالرحيل اليوم
- إلى أين؟
- إلى أي مكان تختاره .. أنت حر الآن
- وماذا سأقول للناس؟.. وكيف سيتقبلون شخصية وهمية مثلي.. ماذا عن ماضيَّ ومن أكون؟
- كما قلت لك وكما كررت مرارا لست أول كاتب يخترع شخصية ويلبسها نمطا معينا ويجعلها تعبر عن مواقفه
- والآن؟
- والآن ماذا؟
- اتضحت مواقفك وما عدت في حاجة لي؟!
- لا إنما كُنت مرحلة وانتهت...
- ولو سألوني الناس ماذا سأقول لهم؟.. سامحوني فأنا قررت الرحيل عن زمن ولى ولو سألوني ما اسمي؟ سأقول ربما سيد أو محمد أو عربي أو .. أو.. ومهنتي؟.. في غزة كنت مناضلا، وفي المغرب مهاجرا سريا، وفي بلاد لا أعرف موقعها في الخريطة كنت لاجئا.. أليس كذلك؟

- الأمر أبسط مما تتصور.. افقد ذاكرتك وابحث فيهم عن هوية جديدة..
- مثل ماذا؟ أنسيت أني كنت أسترق النظر اليهم من وراء عينيك وأراهم ضائعين أكثر مني.. خائفين من الآخر دوما.. متضايقين من مستواهم المعيشي وغير راغبين في شخص جديد حتى وإن كان شخصية وهمية.. سيعتبرونني مدسوسا عليهم من سلطة فوقية.. والسلطة ستعتبرني إرهابيا متطرفا يدس الفكر المرفوض بين شباب مستعد لتقبل كل فكر غريب.. وقد يراني البعض منقذا لهم وأملك من التجارب ما قد يجعلهم أقل ضياع..
- أنت تضخم الأمور..
- ألست شخصية وهمية.. الكل مهووس الآن بالعالم الوهمي
- الناس أبسط مما تتصور ولو قررت العيش بينهم سيحبونك وسيمنحونك من عطاياهم..
- ولو سألوني من أين أتيت.. ماذا سأجيب؟
- لن يسألوك وحتى وإن فعلوا.. قل أي شيء لن يهتموا أبدا..
- من الذي لن يهتم هم أم أنت؟ كيف تتخلين عني وكنت المعبر عن أفكارك دوما هل سمعت يوما بكاتب يتخلى عن بنات

أفكاره وشخصياته.. هل أعدد لك من ماتوا دفاعا عن مواقفهم فخلدت شخصياتهم؟

- إذاً تفكر في موتي لتخلد أنت!
- بل أفكر في أن نخلد معا أم أنك قررت البحث عن شخصية عاجزة كالمحيطين بك.
- لا يهم..
- وما المهم إذاً؟ تغيير المعطف وتغيير اللون والمذهب.. المهم أن تظلي اسما مطيعا لا يجيد غير كتابة التهليل والتكبير وكلمات التأبين والشخصيات تتغير بتغير الزمن يا سيدة زمن الخضوع.

تأبط بضع وريقات من على سطح مكتبي وفرشها أرضا، ربما أدرك أن لا جدوى من الحوار.. جلست أرقبه وبداخلي غصة فرح، فالفرح في موقفي هذا ليس دليل انتصار ، وإنما هو إحساس داخلي أشبه بالحزن أو الخزي إن صح التعبير، رمقني بنظرة فاحصة كأنما يكتب صك تحرره مني ويلغي بالتالي قراري حتى لا أعلن انتصاري عليه يوما، قهقه عاليا لتتحول ضحكته إلى نار تلتهمني قبل أن تلتهمه والأوراق..

هواجس

مزق الأوراق بعنف وغضب شديدين، ووقف يرنو إليها كأنما ينتظر أن تنبعث من جديد، توقف لبرهة ثم عاد يدهسها بقدميه ويستهزئ بها وبالشخوص التي احتوتها..

- لن أكتب مسرحية بعد اليوم ، دعوني أنام كباقي خلق الله..

قهقه عاليا ثم أردف:

- العجوز تخترق أحلامي لتقول: "ماذا لو وضعت فوق رأسي شعرا مستعارا.. ألن أكون أجمل؟".. والأعرج يضع عكازه على صدري ويقول: "لِمَ أنا؟.. قلت أعرج قلنا دور وينتهي، أطلت

الحوار .. قلنا لا بأس.. لكن في أي عصر أنت حتى تجبرني على حمل هذه العصا، ألم تجد أقذر وأثقل منها؟".. والفتاة المتبرجة تتسلل لفراشي، تقهقه بكل قوتها وتسخر من كل ما يحصل معي وتقول: "ذنبي أنا لأنك لم تعطني إلا مشهدين ثم تمسك لحافي وتتركني للصقيع ولضجيج هؤلاء"... لذا لن أكتب مسرحا بعد اليوم ها أنتم صرتم شظايا مبعثرة على الأرض، أنا الكاتب قلتها مرارا أنا من يرسم خريطة النص أنا وأنا وحدي...

عاد لفراشه ومد يده لعلبة السجائر ، حاول إخراج سيجارة منها.. لم يجد إلا واحدة متكسرة كأحلامه وطموحاته متفتتة كأمانيه، لملم الباقي منها وبدأ يبحث عما يشعلها به، اقترب منه لهيب ولاعة انعكس نوره على بريقها فزادت لمعانا، أشعل السيجارة وحاول تتبع اليد التي ساعدته.. كان هو .. هو لكن بشكل مختلف، أنيق ومتعجرف.

- من أنت؟.. لا تقل أنك أنا لأني أنا أنا..

قهقه الرجل بصوت واثق وتعمد الجلوس على الكرسي اليتيم في الغرفة بعد أن نظفه بأطراف أصابعه، تحرك الكرسي للوراء.. قال:

- كما توقعت.. مازال مكسورا

نفث دخان السيجارة، والسيجارة وكل أنفاسه، وقام ممتعضا

- من أنت لتخترق خلوتي؟

- أنا الاختيار الذي رفضته من سنين.. أتذكر؟.. عشت على الهامش وستموت كذلك، ماذا لو قبلت الطلب يومها؟

- ما كنت لأبيع ضميري..

- ومن طلب منك ذلك؟.. قل أنك إنسان فاشل لا تملك إلا أسلوبا، ماذا لو أعرت أسلوبك لهم يهبونك الأفكار وأنت تدونها بطريقتك؟.. لكنك فضلت الشعارات الفارغة، اخترت أن تعيش وتموت بهذه الغرفة حتى شخوصك مزقتها.. من يعرفك؟.. لا أحد.. ولا تقل أنك تجهز لمسرحية تدخل بها التاريخ، فهذا مصير مسرحياتك ومصير شخصياتك، وأنت كذلك..

استدار ، وكأنما يحاول إخفاء الباقي من كرامته المبعثرة وبعض التصديق لما سمع .. ندم ربما

استجمع قوته، وبعضا من غضبه، واستدار ليواجه الطيف الزائر، لم يجد إلا الدخان المنبعث من سيجارته المترامية والتي زادت التهابا بعد أن لامست الورق الممزق لتحرقه والباقي من الأمل..

خطوط عمودية

لمحته من بعيد، كان يحاول رسم شيء ما في الفضاء. اقتربت منه أكثر لم ينتبه لي ولا للمارة الذين عادة ما يمتلئ بهم الشارع في مثل هذا الوقت. كان غارقا في تحديد ملامح لوحة ما كان يراها سواه.. وملامح وجهه بكل الجدية تتغير لترسم رضى متناهياً حينا، وأحيانا تعبر عن خيبة أمل وحيرة.. خطا خطوتين للوراء.. تحرك لليمين مرة بكل جسمه ثم انحنى لجهة اليسار برأسه ليدرك أبعاد لوحته.. أخذ من اللاشيء شيئا نظف به ريشة وهمية، ثم تعمد مزج ألوان لا مرئية بدقة متناهية قبل أن يعود لتقويم خطوط عمودية وأشكال هندسية ببراعة تامة.

استمر لثوان وأنا أكاد لا أبرح مكاني. أرقبه وأحاول المزج بين شخصيته وملامح وجهه واللوحة المرسومة الوهمية. حتى ارتسم على ملامحه فرح ممزوج بتعب لم يكن متصنعا.. اقتنعت أنه كان راضيا عن إبداعه.. التفت للوراء.. لم يلحظ عيون المتطفلين مثلي لأنه كان يرى عالما آخر لم يكن جزءا منه.. أشار اليه ليريه تحفته الفنية بخجل الفنانين المتواضعين.. ثم انحنى تحية ربما لتصفيق متوقع، وانسحب بهدوء ليختفيَ من الشارع ليتركني أحدق في اللوحة الوهمية..

تساءلت مع نفسي.. من المجنون فينا؟

أكملت سيري محاولة عدم زعزعة مرسمه؛ فربما قد يعود إليه يوما ما.

تخيلات

كانت المسافة بينها وبينه أكبر من أن يدركها البصر، لكنها كانت تراه خيالا يتقدم نحوها. وقفت متجبرة القدمين وأنفاسها تكاد لا تحدث صوتها المعتاد حتى لا تستيقظ من حلمها،الذي صار أشبه بجرعة تلجأ إليها كلما اشتاقت لطيفه..

اقترب أكثر .. مدت يدها للسلام عليه، أحست بالدفء، نفس اللمسة التي توقعتها قبلا، نفس الأصابع تحتضن أصابعها المتعطشة للسلام عليه، بدأ صراعها مع الدمع فشوقها أكبر من أن تحدده غير الدموع، ما كان هو ليراها، كان منشغلا باغتصاب المدينة الهادئة بعينيه ولسانه يتغزل بها، راضية هي بتتبع خطواته بين الدروب تشرح أمورا يعرفها سلفا، وتصمت حين تدرك أن كلامها ما هو إلا تكرار

للمشاهد التي يراها، ومع هذا تظل بقربه تكاد خطواتها الصغيرة تهرول لعلها تدرك شغفه للمكان.

آمنت أنها مجرد جزء من هذه المدينة التي يعشقها إلى درجة الجنون، ومع ذلك هي راضية، قوة السائح بداخله أكبر من أن يلمح العيون الصغيرة التي تتبعه وتدمع فقط لأنها حققت أمنيتها برؤيته ولمس يده، أحيانا كان يبادرها بالسؤال فتجيب بإسهاب، معه هي حاضرة البديهة لدرجة أنها استطاعت أن تلغي كلمات كثيرة من قاموسها حتى لا تزعجه، ليتها تملك القدرة لتعترف له بمشاعرها وليتها تستطيع أن تطلب أدنى حقوق المحبين، حتى في الحلم لا تستطيع أن تمسك بيده ويعدوا عبر الشوارع الضيقة، ولا حتى أن تجالسه، وهما يرقبان الغروب ويشهدان الشمس التي تتسلل من وراء الجزيرة كأنما تمنحهما فرصة حضن دون رقيب، توقف أمام مبنى الساعة العملاق الذي يتوسط المدينة ورفع رأسه قائلا:

- كم يحس الإنسان بضآلته أمام معلمة تاريخية مثل هذه.

ابتسمت لأنها نفس الفكرة التي تخترق مخيلتها وهي بجانبه، فهي تراه شخصية عظيمة يكفيها فقط أنها واقفة بقربه تشاركه ما يشاهد وتستمتع لاستمتاعه بمشاهد هي من طقوسها اليومية، فيكفيها أنها ستمر هنا يوما وستحس بنفس الرعشة التي تملكتها وتذكر نفسها بهذا

اللقاء، هناك أمور كثيرة لا تحتاج منا لأكثر من الاعتراف بها في داخلنا سرا لتمنحنا إحساسا متفردا نجزم أنه لن يتكرر، حان المساء والطيف قرر أن يتم مسيرته عبر عوالم أخرى بينما هي تحتضن أصابعه وتأخذ كفايتها من اللحظة، ودون أن تشعر قبلت ظهر يده، أدرك ساعتها فقط أن هناك إحساس أسمى من أية علاقة حب...

عيون القلب

احتضن الفلسطيني ذو الخمسين عاما عوده كطفل صغير وراح يدندن وعيناه مغمضتان حتى خلته لم يلمح وجودي وأنا المتطفلة التي قررت أن تجلس بمجلسه اليوم دون إذن مسبق.

كانت عيناي تفترسان كل شيء: أناقته المتناهية ومكتبه وكل الخلفية، حتى باغتني بالسؤال:

- لمن تحبين أن تسمعي؟

أجبت ودون تفكير:

- نجاة

ابتسم للاسم ثم نظر إليَّ بعينين فاحصتين، وقال:

- آه من عيون القلب

ثم قهقه عاليا، ربما لأنه لمح بعض الخجل المرتبك في نظراتي وراح يغني بانسجام تام:

انت تقول وتمشي
وانا اسهر منامشي
يا لي ما بتسهرشي
ليلة يا حبيبي

بقدر حبي للأغنية إلا ووجدتني أحس بتناقض تام، فكيف لهذا الفلسطيني، الذي عاش عمره تحت وطأة الاحتلال أن يتصرف بكل هذا الهدوء، وأن يكون بهذه الأناقة وأن يعيش مع كلماتها.

لم تكن الأغنية إلا خلفية موسيقية للصخب بداخلي فلم أستمتع بها كما أفعل كل مرة، وإنما أغمضت عيني فتراءت لي مشاهد تعودتها لذلك الصراع اليومي في القدس إلا أن كسر المشهد فلسطيني مغترب، قال:

- لِمَ لا نقيم يوما فلسطينيا نناقش فيه القضية ونستمع للأغاني الفلسطينية؟

كلامه أعاد بعض التوازن في فكري، أيقظ حماسة تنتفض بداخلي كلما طرح الأمر، كانت دندنات العود تخفت قليلا، وكأنه يعلن استسلامه للقرار ، لكن الأمر لم يكن كما توقعت.

- عما سنتكلم؟.. عن التطبيع؟.. عن المستوطنات؟.. عن ماذا سنتكلم؟.. هل تغير شيء لنتكلم عنه؟

الكلام أخرسنا جميعا، صمتنا لبرهة، ثم أردف:

- ما تغير شيء.. المفاوضات كما هي وفي كل مرة نجلس مع العدو يقول لنا : "**هذا لنا وهذا ليس لكم.. هذا لنا وهذا ليس لكم.. هذا لنا وهذا ليس لكم**"، وبعد أن يأخذ من بلادنا الكثير يعود لقطعة صغيرة فيقول: "**هذا لنا وهذا لكم**"؛ فنفرح كالصغار ونقول أحرزنا تطورا في المفاوضات.

في غمرة اندهاشي من رده وبالمرارة التي تجسدت بصوته رأيته يلتفت إلي ويقول:

- نجاة صح

ثم بدأ يغني من جديد:

انت تقول وتمشي

وانا اسهر منامشي

يالي ما بتسهرشي

ليلة يا حبيبي

ساعتها فقط أيقنت أن نجاة لم تكن تغني إلا عن فلسطين...

فشل في أن يخلق لنفسه توازنا داخليا فابتدع وهما خارج مداره لعله يحرز انتصارا مخدوعا

الوثيقة الوهمية

جلس يقلِّب في أوراقه بحثا عن وثيقة ما، هو يعرف مسبقا أن لا وجود لها إلا في مخيلته لعله يوهم زوجته أنه على حق في دعواه، بينما هي تحاول إعادة ترتيب ركن المكتبة الذي عبثت فيه يد ابنها الصغير

- سترين.. سأجد الوثيقة الملعونة، وسيكون لي الحق في فتح نافذة على الشارع

لم تعره اهتماما ومضت مغادرة الغرفة، فأفضل جواب على كلامه هو الصمت، اغتاظ من الأمر:

- أكلمك وتتجاهلينني وتخرجين، خَرِفٌ أنا؟، برأيك أنا خَرِفْ؟

لم تجبه، ومضت تتنقل في البيت الذي يحمل بصمات أجيال على طابعه القديم، والذي لم يستطع زوجها حتى طلاءه بالجير ليخفي الأسوار التي عرتها الأزمنة والأيادي، وتمتمت:

- لا تجيد إلا الكلام

بينما كان هو لا يزال يحلم بثمن البيت، الذي سيصير في عنان السماء لو فتحت النافذة وحتى إن لم يبعه فسيكون البيت أكثر إضاءة و.. و.. و..

أيقظته من أحلامه :

- اتصل بابنك واطلب منه أن يأتي في الصيف، راضية تفتخر بابنها الذي يأتي دوما محملا بأطنان الهدايا ، وأنا ابني حتى اللغة العربية تناساها كما نسيَنا
- ابنك ما عاد ابنك، يستعر منا سيدتي
- وما به ابن راضية لم تسرقه الغربة، لو رأيتها أمس تتكلم عنه، أو القميص الذي كانت ترتديه ثوب أحمر حريريا، وأنا كالخادمة بجوارها..
- سترين عندما نفتح النافذة على الشارع
- أوف أتعبتني ونافذتك، المعتوه كان هنا بالأمس، كعادته
- لم عاد؟
- ليشتمنا، ليهيننا أمام أهل الحي، ليقول إننا جهلة ومتخلفون
- اطلبي له الهداية
- لم تنفع معه، لقد استحل لنفسه ساعة جدك القديمة.

الكلمة أفزعته وأخرسته، لكنه عاد لتفكيره وللوثيقة الضائعة ثم أردف

- ألم يخبرك بعنوانه؟
- من؟ المعتوه... لم؟.. لا تتعب نفسك أكيد باع الساعة واشترى بثمنها ما يأكله هو والشرذمة التي يرافق هذه المرة، كان معهم متسول أجنبي لا أدري في أي مزبلة عثروا عليه.
- هو الوحيد الذي قد يساعدني في استرداد حقي ، سأرسله لسي صالح ليكلمه بموضوع النافذة، ما رأيك؟
- ومتى كان ذاك المعتوه يتكلم كالبشر، أم صدّقت فعلا ادعاءاته، لو رأيت رفقاءه، شلة من قطاع الطرق
- وهذا ما أريد

قهقهت بصوت عال، وأردفت:

- تعجبني حينما تكذب وتصدق كذبك، ما دمت فشلت في استعادة ابنك المغترب، وأن تعيد لابنك الثاني عقله، فلا أحسن من أن تعيش وهما في مخيلتك

ثم أردفت:

- سي صالح - قاد بأشغاله - ولا أنت ولا عشرة من أولادك سيزحزحه من بيته...

ضيفة العيد

مضى عام كامل، مازلت أذكرها، امرأة في العقد الخامس من عمرها لكنها تبدو أصغر من ذلك بكثير، عالية شامخة بكبريائها، راقية في لباسها، تشبه كثيرا المدينة التي لفظتها يوم عيد الأضحى، لتأتي لمدينتي الهادئة طالبة "ضيف الله" فلم تجد أمامها إلا بيت والدتي التي مازالت تحمل وجع فقيدها وتكاد تستقبله في كل طارق على بابها.

استقبلتها أمي، لكنها فضلت أن تعتكف في غرفة بالطابق الأعلى كأنها تريد حرمان نفسها من متعة العيد.

وصلنا لبيت والدتي، كعادتنا كل صباح يوم العيد، نحمل فرحتنا وعاداتنا وشوقنا لأحضان هذا البيت المملوء بطيب الدعاء.. فتحت أمي الباب، واستقبلتنا بحرارتها المعتادة واقتادتني لركن لتطلب مني طلبا - على حسب قولها - لن يستطيع أن يقوم به غيري، وأخبرتني بأمر

ضيفتنا. صعدت الدرج وأنا أدرك أن مهمتي صعبة رغم أنني طالما مارستها مع أطفال صغار، قد لا يحتاج وجودي معهم إلا إلى لعبة أو نشيد أو حتى مشاكسة لتعتلي محياهم البسمات.

الأمر هنا مختلف، وصلت الطابق العلوي وبدأت أقترب من الغرفة، انمحت كل الأشكال التي رسمتها للمرأة في خيالي، فلم تكن تلك السيدة التي حكت أمي عن انكسارها، كانت جبلا شامخا مرتميا على الفراش، والدموع بعينيها تحتبس بطرف المقلة فيظهر بريقه ولا يسيل، اعتدلت من جلستها لتستقبلني بيديها الممدودين وأسرعت أنا حتى لا تبتعد أكثر عن الوسادة، حضنتني بحضن أم متلهفة لحنان الأبناء، حاولت حبس دموعي كما تفعل هي لكنني فشلت بينما هي لم تعرها اهتماما أو ربما كانت تقول لي في داخلها:

- أستحق أن يبكى عليَّ...

أفرغت جانبا من السرير حتى لا أبتعد عنها أكثر، وأمسكت بيدي، حكت لي عن مرض لم يفهمه الأطباء والذي أيقنت هي في الأخير أنها حالة نفسية لا أكثر، ومضت تحكي عن رحلتها هروبا من عقوق الأبناء.

في داخلي كنت ألومها لأني أحترم قدسية العيد ولأني تربيت في عائلة علمتني أنه مهما عظمت المشاكل والانشقاقات إلا وأذابتها بهجة صباح العيد، لكنها استرسلت في الحديث...

هي سيدة ثرية جدا، تزوجت في سن مبكر وأنجبت بنتين. عاشت حنان أب وكرم زوج لكنها تُركت في منتصف الطريق مع مراهقتين إحداهن كانت لا تدرك من الدنيا إلا الكتب وطلب العلم حتى فقدت كل اتصال لها بالعالم الخارجي و بعد الفشل في اقتحام الحياة العملية خاصة حصولها على الدكتوراه، والأخرى شغوفة بالأسفار.

قررت أن تدرس الطب بالغربة لكنها لم تدرس إلا بمعهد التجميل، لتتزوج من مهاجر هناك استغلها أسوأ استغلال لدرجة اتهامها بمحاولة قتل ابنهما الصغير، ليؤخذ منها الطفل غصبا، ويوضع في ميتم في انتظار أن يبث في قضيتها.

وتفاجئني ضيفتنا بحكاية غريبة، وكيف سافرت لابنتها وكيف اختطفت الطفل بقصة بوليسية فيها من المصاريف ومن الجهد والمخاطرة الكثير لتعود بهما إلى أرض الوطن عبر الحدود، بتفاصيل مثيرة ورسم للحدود وبوسائل مواصلات متخلفة.. كل هذا ويدها تمتد كل مرة لتتلقف دمعة قبل أن تسيل..

عفويتها والتفاصيل التي كانت تحكيها أقنعاني بقوة شخصياتها فكيف لامرأة بهذه القوة أن تعلن استسلامها وتقرر الرحيل؟.

انتبهت السيدة لحيرتي، لكنها أصرت أن تكمل قصتها حتى النهاية، ولتحكي عن ابنتها التي أعادتها إلى أرض الوطن، والتي لم يمض

على طلاقها من الزوج الأول إلا شهور العدة لترتبط بشخص أسوأ منه، وكيف أنها من حبها لابنتها كانت تلبي لها طلبها فجهزت لها مشاريع عديدة استنزفت كل أموالها، وبعضا من قروض الأهل. وبعد أن طالبتها بتسديد البعض من تلك القروض تفاجأت بها صباح العيد هي وزوجها أمام المسجد بعد خروجها من الصلاة بوابل من الشتائم وكيف أنها أضاعت عليهم فرحة العيد بطلبها ما طلبت، فلم تجد الأم بدا من التوجه إلى محطة الحافلات، وهي لا تفكر إلا في الهروب من عقوق ابنتها دون حتى أن تحدد وجهتها، حتى سمعت مناديا ينادي باسم مدينتي فامتطت الحافلة ليكون قدرها أن نلتقي.

حاولت تهدئتها وأنا آمل في اتصال من إحدى ابنتيها، لكنها كسرت أحلامي وهي ترمق الهاتف وتقول:

- لم يتصلوا

كنت رفيقتها ذاك اليوم. تكلمنا كثيرا؛ فحكت لي بكل فخر عن أضحيتها وثمنها وكيف أنها اقتنت كل ما يخص ذاك اليوم، لكنها كانت تختم كلامها بحسرتها على فتاتها التي تجاوزت عقد الأربعين، ولا تعرف من الدنيا إلا الكتب، وكيف أنها لن تعرف كيف تتصرف..

رافقتها وأنا أتمنى لو يرن هاتفها ولو بالخطأ، لعله يمسح الحزن المرتسم على وجهها الخمري لكنه لم يرن.

وفي المساء عدت لأشاركها فنجان قهوتي، وأنا آمل بخبر قد يفرحني بقدر ما يفرحها، لكنني صدمت بأنها هي من اتصلت بابنتها لتطلب منها أن تطعم الخروف حتى لا تضيف إلى أحزانها ذنب تجويع خروف.

في اليوم الثاني تقرر السيدة العودة إلى بيتها، سمعت الخبر وجئتها مبتسمة لتقابلني بدعواتها قائلة:

- لا تستبشري خبرا فابنتي تطلب عودتي فقط لأنها خجلت من الطارقين بالباب لتهنئتنا بالعيد وقد يكتشفون أننا لم نضح..

ومع هذا أفرحني أن تعود إلى بيتها، لأني أدركت أن لبعدها عنه وقع أكبر مما حصل ..

بعد أيام جاءني اتصال منها، وأيقنت أنها بخير... ربما.

رصاصة الرحمة

لا أدري لِمَ أحسست أن السماء قريبة اليوم، ربما لأني ظُلمت كثيرا، وربما لأنها قررت أن تنطبق علي هي الأخرى لتريحني من عذاباتي. تسللت لفراشي كمحاولة للهروب من الوخز الذي بدأ يمارس لعبته المفضلة في تقليص عضلات صدري...

رغم أن كلام الطبيب كان مطمئنا، إلا أني لم ألحظ ذاك التحسن الذي تكلم عنه، فالوخز ازداد أكثر من أي وقت مضى. غريب أن يستوطن المرض جسدي كل هذه المدة ولم أشعر به قط، وكم هي الأشياء التي تبدو دائما على غير ما هي عليه.

هي سُنَّة الحياة، وأنا دائما أؤمن أن لكل بداية نهاية، والخريف هو لعبة قدرية ترسم على شفاهنا اصفرارها، وتجعل الخذلان رفيقنا، فتخدعك عينك وقلبك وحتى نبضاتك، وفي الأخير ترسم على الأطراف

ذبولا يجعلك تعاف وجودك وتستعجل النهاية، فلا تأتي النهاية تدللا ، هو قانون الطبيعة في أسوأ فصوله.

لا أدري، لِمَ خطر في بالي الآن جارنا مولاي إبراهيم وطاقيته المشهورة التي كان يسميها طاقية الرضا، وكيف يضعها على رأس الابن الأكثر سخاءً، وبالتالي يرغمهم على التنافس فيما بينهم ليمدوه بما حصلوا عليه من كدهم اليومي.

كنت دوما أشفق على هؤلاء الصغار وأراهم ضحية مؤامرة سخيفة من الأب، الذي لم يرحم قط براءة طفولتهم. أشفق عليهم وأراني مثلهم وأنا أبذل قصارى جهد من أجل كلمة رضا وابتسامة عرفان وكلمة حب.

لا أنكر أن تلك الكلمات كانت ربما هي الرصيد الذي جعلني أتجاوز مرضي، دون حتى أن أحس بوجوده، أو ربما كانت المسكّن الذي نفد قبل أوانه، لأستيقظ على حقيقة مرة، عجز كامل وإحساس بانتهاء الصلاحية، إحساس مر وقاتم. كم تمنيت لو أن للبشر مقابر كمقابر الفيلة تنسحب إليها كلما أحست بدنو أجلها. ترى لو كانت، متى كنت سأقرر الانسحاب إليها والهروب من آلامي اليومية، من إحساسي بأنني أشبه بخيل الحكومة الذي تحتاج لرصاصة رحمة كمكافأة على نهاية الخدمة....

غرفة الصمت

الزيارة ممنوعة، ومع ذلك سُمِحَ لهما بالدخول.. اقتربا ببطء.. كانت عيناي مطبقتين، ومع ذلك كنت أراهما.. كانا عاريين من حياتهما اليومية، من شجاراتهما المعتادة، متلاحمين كما لم أرهما أبدا...

أمسك أبي بالدرع الحديدي للسرير بعنف، وهو ينظر إليَّ من وراء دموع متجمدة.. اقتربت أمي حتى لامست حاشية فراشي.. امتدت يدها تسوي اللحاف فوقي.. نادتني.. مرة ومرتين.. كان صوتها عميقا ومتقطعا.. أحسست به يتسلل إلى دواخلي.. أجبتها.. ولكنها لم تسمعني.. لم تسمع غير صوت أبي الذي يذكرها بأوامر الطبيب.. صمتت.. تسللت

يدها إلى الأصابع المطلة من الجبس.. كانت تعرف أنها تملك قوة كهربائية قد توقظني حتى ولو كنت ميتة..

أحسست بقلبي ينتعش لذلك الدفء ويتخطى حدود الموت للحظة.. كانت هي قد بدأت تبكي.. كانت حشرجتها تهز سريري.. اقترب منها أبي.. جذبها إليه.. دعاها لمغادرة المكان، استسلمت له.. سارا معا متلاصقين أكثر مما سبق منهكين.

بدأت دموع أبي تتسارع نحو السقوط.. لم يعبأ بها.. وقفا للحظة، وهما يرنوان لي كأنما كانا يُودعاني..

تذكرت تلك القوة الكهربائية.. كان قلبي يتشبث بها وهي تنفلت من بين يديه وتعيده للخط المتوازي بين الحياة والموت..

استنجدتُ بأمي.. ناديتها.. انطلق صوتي من الأعماق ضعيفا، ثم بدأ يتصاعد ويتصاعد.. آهة دوَّت في غرفة الصمت.. التفتا.. لم يتغير شيء؛ مازلت جامدة في مكاني، عيناي مطبقتان وفمي لا يتحرك..

- لم يكن وهما يا أمي.. لقد ناديتك، وحسبي أنك قد سمعتني.

الخريف الأخير

جلست أرقب أوراق الخريف المتساقطة.. تساءلت مع نفسي: كم يلزمني من الأوراق لكي أدرك أن قانون الطبيعة هو فوق تصوري للأشياء؛ فطوال سنوات عمري التي مضت، كانت بها فصول، تتعاقب بانتظام، وكنت أرى لكل فصل عذرا ومبررا.. الشتاء ليسقي الأشجار لتورق من جديد، والصيف ليجفف الأوراق الذابلة لتتجدد أخرى.

كان هناك دائما ما هو آت فيما بعد.. وبكل الأمل كنت أرى دورة الحياة مستمرة يتجدد معها حرصي على المستقبل.. ما كنت لأبكي شمسا تغيب لأنني موقنة بأن وراء الغيب شمسا أكثر دفئا ونورا.. لكن

هذا الخريف ليس ككل خريف، أحس أن سويعات عمري مرتبطة ببقايا الأوراق العالقة والقابلة للسقوط في أية لحظة..

وأنا أحس بالعجز عن رسم أحلام للثواني القادمة لأول مرة تتحدد اختياراتي بين أن أغلق عيني حتى لا أبصر السقوط الأخير، وبين أن أعزف على وقع الأمر آخر لحنا قد يتغنى به من هم بعدي - إن استساغوه أصلا.

أزلت الساعة من يدي، وتعمدت فتحها، وطرحت العقارب أرضا.. أعجبني شكلها الجديد، أعدتها إلى معصمي، وافتخرت أنني انتصرت على دقاتها التي تحتسب عمري؛ ففي النهاية هناك أجل محتوم، قد لا تدركه عقارب ساعتي الصغيرة.

الانصهار

توقفت السيارة أمام محطة الحافلات بالعاصمة معلنة عن انتهاء رحلة ربما قبل أوانها، ترجل وبدأت طقوس الوداع.

تعمدت الوقوف بعيدا مستغلة آلة التصوير بيدي محاولة تسجيل لحظات ما كانت لتنسى، أو ربما لإخفاء دمع لا أملك لمنعه دفعا، مضت لحظات توديعه للآخرين بسرعة غير متوقعة لتستقر يمناه بيميني، طقوس اعتيادية للوداع لكنها شكلت انكسارا دمر قلاع صبر سهرت أرسمها بداخلي، وكلمات مجدت فيها قدري وقمة رضاه وحمدت الله كثيرا ليلتها ولقنت لنفسي معان وأسباب جديدة للحمد،

لكن لحظة الوداع كانت أقسى من المتوقع والأقسى منها إخفاء الدمع بالأحداق...

سارت السيارة بي مبتعدة عن رصيف يحتضن انسلاخه عني وانسلاخي عنه.. اختنقت العبارات في حلق من معي وأجزموا أنه بكى..

لم أشاركهم الحوار؛ فشريط الأيام الماضية أعاد استعراض نفسه أمامي.. لم يكن الأمر نوعا من التشفي وإنما قناعة داخلية بالحمد، إيمان مطلق أنني حتى بالبعد عنه نوع من الإنصاف، اقتناع أن المسافات ما هي إلا هندسة فالعمر يقاس بلحظات السعادة، والمسافة ما هي إلا هندسة خاطئة وجائرة بمدى الاكتفاء الذاتي بالآخر، وبقيمته في حياتنا.

لم تكن المسافة بين العاصمة والمدينة الموالية ضئيلة، لكنها كانت غير كافية لتعداد مزايا اللقاء الأخير، توقفت السيارة بنا في أماكن عدة والرحلة ما كانت لتنتهي قبل أن نستجمع قسطا مهما من الزيارات لمناطق أثرية وحضرية أيضا، لكن مذاق الجولة فقد طعمه وبهتت كل الأماكن، فقد صارت خلفية لصورة مترسخة بداخلنا وأن الرحلة انتهت في لحظة الوداع تلك، حتى آلة التصوير فقدت دورها في

تسجيل الأحداث والأماكن، حتى الوجوه التي قابلناها صارت تشبهه والعبارات تعرج على ذكراه والكلمات تؤول دائما إلى طريقة تفكيره وتعبيره عنها.. اقتناع مطلق أن لحظة الوداع تلك لم تكن إلا التحاما وانصهارا

طبل الحرية

مد بصره عبر الشاطئ الطويل، واستنشق بكل قوته نسيم البحر البارد، حتى إذا ما امتلأت رئتاه وأحس أنه صار أخف من الهواء.. بسط يديه.. صار طائرا محلقا.. تحركت قدماه في حذر شديد، ثم بسرعة أكثر.. لقد أيقن أنه تحرر من الأسر .. صار يجري كطفل صغير .. بدأت دقات قلبه تتسارع.. تذكر حواره مع الطبيب:

- أحس أن قلبي صار طبلا ينقر عليه بكل قوة..
- هو فعلا طبل كلما ارتفعت دقاته إلا وأنذر بقرب معركة جديدة...

معركة غير متكافئة تشل كل أعضائه وتدخله في غيبوبة كلما استيقظ منها وجد نفسه مكبلا بشتى الأنابيب... لا سيدي لا يمكن أن يكون هناك طبل ينذر بمعركة؛ فهو مازال يتذكر عندما كان طفلا،حيث كان له طبل صغير لا يذكر من أهداه إياه، ولكنه لم ينس أنه كان معلقا بعيدا لا تطاله يده الصغيرة.. طبل لا يسمح له بلمسه إلا يوم العيد حتى آمن أنه يكفي أن ينقر عليه لكي يستقدم العيد..

لا يمكن للطبل أن ينذر بمعركة، قد يعلن السلم.. العيد.. الحرية.. كما هو الحال الآن، وتسارع دقاته الآن ليس سوى إيذانا بالانطلاق إلى عالم أفضل..

ارتفعت الدقات في صدره وبدأت تثقل.. شلت معها ركبتاه فتجمد في مكانه.. انثنى.. بدأ يلمس الرمل البارد.. انفصلت الدقات.. صارت واحدة... واحدة.. اختنقت أنفاسه.. لم يعد لهواء البحر المنعش مجال لاختراق صدره.. انهار ببطء، حتى لامست خده موجة صغيرة قبل أن تسمع الدقة الاخيرة على طبل الحرية.

بلاغ عن طفلة ضائعة

عندما التفت إليها آخر مرة كانت على بعد مترين منه أو متر ونصف، يدها اليمنى تمسك بإبهام اليسرى مكونة بذلك دائرة تعلو وتنخفض على وقع موسيقى يعزفها فمها الصغير وترافقها خطوات موزونة، ناداها، لم تسمعه، كانت منشغلة بمراقبة المارة.

وقف ينتظرها، استظلت به.. ضحك.. لكنها أكملت سيرها دون أن تجيب نداء اليد الممدودة.. ضحك مرة أخرى، وضحك أكثر حين تذكر أنه قرأ في كتاب ما أن ذلك معناه الاعتزاز بالنفس أو ما شابه ذلك.

انغمس من جديد في ذكرياته.. كان يتمنى أن يكون له أبناء عديدون.. يتخيلهم دائما وبأسماء مختلفة.. تذكر عندما كان في أول شبابه ينام على الحشيش في بلدته النائية.. ويتخيلهم يعدون حوله.. كان يعد نفسه دائما بأنه سيجلسهم حوله وسيحكي لهم قصة جده الذي هاجر من الأقاليم الجنوبية واستقر بتلك المنطقة.. سيريهم عامود الخيمة الذي مازال يحتفظ به.. سيفخرون.. لا شك سيفخرون.

تذكر زوجته.. يخيل أنها لم توجد في هذه الدنيا إلا لتهب له هذه الطفلة وتموت بعد ذلك.. وبما أنه كان يحبها فقد قرر أن يتخلى عن حلمه الكبير وأن يجود بحياته من اجل هذه الطفلة. تذكرها.. التفت إليها ليقبلها كما يفعل كل مرة.. لكن.. أين هي؟

وقف، صاح.. ثوان كانت كالجبل لم يدرك منها شيئا سوى أن ذلك الأمل الذي كان يسير خلفه قد اختفى.. لم يكن ما ضاع حلما.. كانت ابنته.. جرى في كل اتجاه.. ناداها بأعلى صوته..

بعد ساعات عاد إلى نفس المكان، وارتمى بثقله على الرصيف.. ماذا يفعل؟.. أحس بشيء غريب يدعوه أن يعود إلى الدار ،ويرتمي على صدر أمه باكيا كما كان يفعل وهو طفل، ويحكي لها ما جرى؛ فلها

دائما حل لكل مشكل.. لا إلا هذه المرة. المشكل أكبر بكثير.. ما الحل إذاً ؟؟.. الشرطة؟

عندما سأله الشرطي عن أوصاف ابنته.. تردد كثيرا؛ فهو لم يكن يعرف منها سوى أنها ابنته؛ فطوال سنواتها الأربع، عاشت في كنف أمه، وتعرفها أكثر مما تعرفه لكنه قرر أن يجيب، ولم يكن كلامه إلا وصفا عاما تماما كالوصف الذي يلجأ إليه حين كان المعلم يطلب منه وصف شيء يجهله..

سأله الشرطي مرة أخرى:

- أين كانت حين ضاعت؟

شعر بغباوة السؤال.. كان عليه أن يسأله: أين كان هو؟؛ فالطفلة كانت وراءه طول الوقت، فهو الذي كان غارقا في أحلامه الصبيانية.. انتهى المحضر

عاد عبر الشارع الكبير إلى البيت، وفي اللحظة التي اصطدم بضجيج المكان أحس مرة ثانية بيتمه وبحاجته الملحة إلى صدر أمه يسكب عليه دموعه.

طفل صغير

نظر إليها وهي تعبر الغرفة لقضاء بعض الحاجيات، أحس أنها كبرت بعشر سنوات على آخر مرة رآها فيها قبل أن يتعرض للحادث الذي جعله عاجزا حتى عن أبسط الأشياء. سرت في أوصاله رعشة، تمنى لو تضمه إلى صدرها لتطرد سنين الألم المتجمدة في ذاته.

كم مضى من الوقت وهو على هذا الحال؟.. لا يدري؛ فهمهمات الأطباء عادة ما تكون بلغة لا يفهمها.. وحتى عندما تقترب هي من سريره وتحاول أن تحدثه فغالبا ما ينتهي الأمر إلى دموع. لم تعد تحتمل رؤيته على هذا النحو، لا شك أن ما حل به هو شيء فظيع، فهي

صبورة إلى أقصى درجة. عاشت تكتم كل مشاعر الألم والازدراء من كل من يحيطون بها..

كم كان يسبب لها التعاسة، كانت دائما تعامله كطفل صغير مازال يذكر تلك المرة حين كان أفراد العائلة مجتمعين في البيت الكبير، حيث كانوا يستلذون ألذ حديث أمرها مع ابنها، وكيف أنها لم تفكر بالزواج ثانية. ساعتها وضعت يدها على كتفيه وعانقته كطفل صغير. ضحك الجميع، لم يتقبل الأمر، انتفض من تحت يديها وانطلق بعيدا.. قبل ان يندم على تصرفه.

ليلتها لاحظ لمحة حزن في عينيها، ويجزم أنها بكت، لا شك أنها بكت، وها هي الآن وحيدة تطوف حول سريره. لو يستطيع، لارتمى في حضنها، ولعاد طفلها الصغير من جديد، ولو لآخر مرة في حياته.

إحساس الأمومة

لطالما أبكاني احتمال أن أكون عاقرا؛ فقد مضى عام ونصف على زواجي، وهذا التأخر أخذ من صبري الكثير ويوم أقرَّ الطبيب بأني حامل، جاء خبر آخر أن هناك تخوف من سقوط الجنين.. وعليَّ الالتزام بالفراش لمدة شهر كامل مستلقية على ظهري وأي حركة مني تثير المخاوف بداخلي لكن بمضي هذا الشهر بدأ تفكيري يتخذ منحى آخر..

كان عليّ أن أجهز نفسي لاستقبال طفلتي علي أن أكون أما مثالية؛ فبدأت رحلتي لجمع المعلومات واقتناص الكتب، ومع كل يوم يمر يزداد إحساسي بالأمومة كبرا فلم يعد إحساسا بالفرحة بقدر ما كان شعورا بالمسؤولية عن كائن ضعيف بداخلي..

وهي في أحشائي، جبنا معا شوارع كثيرة، وقمنا بزيارات عدة فكنت عينها وسمعها، كنت أخبرها بكل ما يدور بالعالم الخارجي وحتى قبل أن استسلم للنوم أتعمد أن أغني لها أناشيد الأطفال حتى تغفو.

انقضت الشهور التسعة، وكان أطولها الشهر الأخير، غير أنه انقضى وحل معه النبأ اليقين وبدأ الوجع يراقصني، ففرحت به كفرحة طفل بحلة العيد، كان كل شيء عاديا..

تعمدت التأخر حتى أتأكد من أنها ساعة الوضع لا محالة وبعدها أسلمت نفسي للطريق وأنا أحلم بعودتي وبين ذراعي طفلتي ودليل أمومتي....

بعد الفحوصات وكل الإجراءات أجد الممرضة تقول لي سأعطيك حقنة لعلك ترتاحين، تقبلت الأمر بصدر رحب فكل شيء يهون في سبيل التعجيل باللحظة التي انتظرتها قرونا .

كان الوقت ليلا.. أمرتني أن أستلقي على جانبي الأيسر؛ ففعلت، وبعدها لا أذكر إلا والشمس في السماء تتسلل من النافذة الموالية،وزوجي يحاول إيقاظي. كان مذهولا وكنت أكثر منه، والسؤال المطروح في داخله يكاد يصرخ بداخلي..

دخلت الممرضة.. بحركة لا إرادية التفتنا إليها، وكأننا نسألها الإجابة.. قالت:

- لم يكن حقيقة، الوجع كان مزيفا لذلك..
- لكني لم أعد أحس بشيء

قلتها بتذمر:

- عودي للبيت... وإذا أحسست بالوجع مرة ثانية عودي.

التفتُّ لزوجي، لم أنبس بكلمة، لكن ثورة الغضب بداخلي تنم على أن ما كنت أحس به لم يكن وهما..

لاحظت الممرضة ملامح وجهي، وقالت:

- تعالي لتتأكدي.. سأعيد الفحص من جديد.

استسلمت، ومشيت خلفها.. دخلنا غرفة الفحص، وأخذت مكاني، لم أع بعدها إلا والممرضة تصرخ:

- لقد قتلتها

تدخلت إحدى الممرضات المساعدات، ووضعت مجسا على بطني ثم أشارت بالنفي، مرت ثوان لكي أعي أنهم يتحدثون عن نبضات قلب ابنتي.. انطلقت حالة استنفار في القاعة.. بدأت المناداة على الطبيب.. سألت :

- ماذا سيحدث؟
- لازم قيصرية
- الخير فيما اختاره الله.

كلمة وجدت نفسي ارددها وأعيدها.. تذكرت أمي ناديت ممرضة بجانبي:

- لو سمحت أخبري زوجي ألا يتصل بأمي.. لن تتحمل الأمر

لكن إحساس الأم كان أقوى، وكانت أمي بالممر، لمحتها وأنا مدفوعة في السرير المتحرك..

- الخير فيما اختاره الله

رددتها في وجه الكل، كانت إلهاما من رب العباد، أو حتى تذكرا لقدرته وطلبا لرحمته..

كانت أول مرة أدخل فيها غرفة العمليات، وبعدها لا أذكر إلا وأنا في غرفة العناية المركزة وقد بدأت استعيد وعيِ والتفتُّ حولي.. كنت وحدي .. استغربت الأمر ،ومع ذلك مازال بداخلي صوت يقول:

"ربي أنا أريد وأنت تريد والله يفعل ما يريد.. اللهم لا اعتراض على حكمك"

لمحت شخصا غير بعيد.. ناديته:

- ممكن طلب.. لي أم في مكان ما.. ممكن تخبرها أنني قد استعدت وعيّ وأنني بخير.. لا شك أنها قلقة

بعد لحظات عاد الشخص ليقول لقد أخبرتها وهي فرحة لأجلك، قالها ورحل.. لم يكلمني عن ابنتي.. ربما...

دمعت عيني وردد لساني تلك الكلمة الخالدة

- الخير فيما اختاره الله

كانت بلسما وشفاءً وطمأنينة، وإذا بالشخص يعود نحوي ويقول :

- نسيت، ابنتك جميلة جدا ليحرسها الرحمان.

العودة إلى الماضي

حزمت أمتعتها ولملمت شتات نفسها الموزعة في الغرفة، مسحت المكان بعينيها دون سابق إنذار.. ودعته، وودعت آمالا عديدة كانت قد رسمتها مع طلوع شمس كل يوم.. لمْ تسأل لماذا؟ لا يهم، فقد نطق بالكلمة النافذة ولم يعد لها مكان في بيته، وإلى أين تذهب وكل الآفاق مغلقة أمامها، إلا من غرفة بائسة فوق السطح، حيث الأب المقعد وزوجة الأب المتعبة. لم تلمها يوما، ولن تلومها فهي لم تعرف أباها إلا مريضا أقعده المرض طوال العشر سنوات، التي هي عمر زواجهما. تذكرت ذلك البيت. تذكرت وهي تخرج منه عروسا تلملم كل الآمال والآن تعود إليه بخيبة الآمال. غريب أنت يا قدري رسمت لي أحلاما حالت تعاستي دون تحقيقها.

تخطت عتبة الغرفة وسمحت للباب أن يغلق خلفها، أحست أن صوته هذه المرة ليس كالمرات السابقة، فكم مرة غادرت الغرفة لقضاء بعض الحاجيات ولم تسمعه يقفل بهذا الشكل المريع، وكأنه هو الآخر يلفظها خارجه . مشت لخطوات حتى صارت في الشارع الممتلئ بالمارة، تفقدت الوجوه لعلها تبصر بينهم عينا تشفق لحالها.. لم يهتم أحد بمرورها، لم تطمع إلا في كلمة وداع، ومع ذلك لم يسعفها القدر لتسمعها.

مشت سعاد إلى ماضيها، تكاد ترسم حياتها من جديد وهي تنضاف إلى الجثث في الغرفة البائسة، لطالما تمنت أن تكون الأمور بيدها يوما، ولطالما تمنت أن تتحرر من تسلط الآخر ، ومع ذلك فدائما هناك وصي عليها، يحركها كما تُحَرك الدمى بخيوط الأراجوز، إذ ليس بين يديها خيار إلا العودة لماضيها.. تخيلت نفسها تطرق الباب وآلاف الأسئلة تنهمر بانفتاحه.. لِمَ؟ وكيف؟ ومتى؟، وكل علامات الاستفهام المتاحة. وجدت نفسها عاجزة عن إيجاد الرد بداخلها، فهي لم تسأله لِمَاذا طلقها، لم تسأله، فقد كان هو القاضي والجلاد، ولأنها تعودت على الخنوع، ولم تألف البحث عما وراء الأمور؛ فقد قررت أن تستسلم دون استفسار، والحكم هذه المرة أن تعود أدراج الماضي..

الفائز بالشهادة

جلس في مكان منزو بعد أن جهز كل الأدوات اللازمة للرسم، إنها ليست ككل المسابقات التي شارك فيها، لم يطلب منه أن يرسم الأمل، ولا الربيع، ولا حمام السلام، اليوم صوت المعلم كان واضحا.

قال:

- ارسموا وطنكم تحت الحصار.. ارسموا دروبا من الظلام ارسموا مستشفيات تحتضر بمرضاها، ارسموا كسرة خبز مفقودة. .ومن سيرسم أحسن سيفوز..

لم يقل المعلم بم سنفوز.. لا يهم.. هو يحب الرسم.. يتحرر مع ألوانه ويطير مع خطوطه..

قرر أن يكون الفائز اليوم، جاءت إشارة البدء، نظر إلى أصدقائه وتساءل :

- ماذا تراهم سيرسمون؟ بيتا مهدما ودمى متكسرة، راية الوطن المخضب بالدماء، لا يمكن أن يرسموا حمام السلام فلا مكان له اليوم في مسابقتهم، أخد ريشته وبدأ يفكر، الموضوع أكبر من أن تحده لوحة..

لا يهم من أين سيبدأ، بدأت طائرات العدو تحلق من جديد لم يعبأ بها، إنه الأمر الأكثر اعتيادا هنا في غزة.. المهم هو أن يفوز..

أخد علبة الألوان واختار منها اللون الأحمر. .خطَّ فوق الورقة.. لم يكن اللون كما يريد، كان باهتا، هو يريده بلون الدم.. رفع صوته.. نادى المعلم:

- ماذا تريد؟

قبل أن يجيب الطفل، كانت ورقته قد امتلأت بلون دمه، انطلقت قذيفة طائشة من طائرة العدو لترسم لوحة لا كاللوحات، ولتعلنه الفائز... بالشهادة..

ولدي

كان طفلا هادئا رزينا اسمه يوسف، مازالت ملامحه تزورني في نومي ويقظتي، عمره خمس سنوات كان دائما يتخذ آخر صف ليجلس فيه، ليس عن كسل وإنما استحياء. طبعه متميز..

أحب كل الأطفال، الذكي أحبه لذكائه والطيب لطيبته والنشيط لنشاطه، كل طفل بالنسبة لي هو ابني.. أكاد أخترق دواخله لأعرف ما يحسه وما قد يضايقه؛ فانا أمهم الثانية التي تستقبلهم بعد الولادة وترضعهم، وتغير لهم، وتعودهم إن مرضوا، أحبهم ويحبونني، نقضي ثمان ساعات يوميا، ولمدة عشر شهور من السنة..

على أيديهم عرفت معنى الأمومة قبل أن تهبني الطبيعة أولادا. معي تعلموا أول خطوة وأول كلمة، وكتبوا أول حرف، أولادي.. أمرض إن مرضوا وإن غاب أحدهم تنقطع أنفاسي حتى يعود. أتصور دائما الأسوأ ، لكن عندما يعودون تعود بسمتي وأعود طفلة معهم..

مرض يوسف ذو الخمس سنوات، ودخل المشفى. قرر الطبيب ضرورة إجراء عملية جراحية، بكينا، دعونا، اختنقت أنفاسنا في انتظار آخر الأخبار، وجاء الطبيب ضاحكا باسما :

- ما بكم؟ العملية بسيطة لا تحتاج الى كل هذا، لقد نجحت والكل تمام

فرحنا وحمدنا الله.. عدت لعملي أبشر من معي.. الحمد لله...

قرر الطبيب أن يظل يوسف أيام النقاهة في المستشفى... أمر عادي، والطفل حالته في تحسن كبير..

مرت عشرة أيام والتقارير ما شاء الله على أحسن ما يرام... وأنا بمكتبي بالمؤسسة، منهمكة في ترتيب ملفات التلاميذ، رن الهاتف.. كان الطبيب على الطرف الآخر يقول:

- لو كل مرضاي يحبونني كما يحبك يوسف

ضحكت ورددت

- والله ليس أكثر من حبي لهم

- هل ستكونين غدا بالمؤسسة؟.. أريدك في مهمة
- يشرفني الأمر
- يوسف يريد زيارتك.. هو الآن بخير ، ويحب أن يفاجئك بالزيارة يطلب أن يراك

دمعت عيناي، واختنق الكلام في داخلي، حتى لم أدر يومها كيف أنهيت المكالمة.. فكرت في أشياء كثيرة، طريقة الاستقبال، ما سيقوله أصدقاؤه، سأجعله يوما لن ينسى.

ألغيت كل أعمالي، وبدأت أتخيل تلك الساعة.... إنه ولدي..

جاء الغد، ولا أدري إن تأخر أم جاء قبل موعده. كنت أحسب خطواتي للباب، ثم أعود للنافدة.

لا أدري إن كان سيأتي بسيارة الطبيب أم بسيارة أبيه، رن الهاتف حملته دون اكتراث وقررت أن أجيب.. كان صوت سيدة لم أميزه..

- أستاذة.. إنا لله وإنا إليه راجعون .. مات الطفل

ألغيت المسافات، والقوانين... ألغي العالم بأسره... لا أذكر إلا وأنني في الشارع العام أركض بلا هدف، وبداخلي صوتان، واحد ينفي كل ما قيل ،والآخر يثبت ويؤكد ..

لا أعي ولا أذكر ما حصل يومها... استفقت على صوت أمه تحضنني وتقول لي

- كان يحبك.. ويذكر اسمك إلى آخر لحظة.. رفض النوم يستعجل الغد ليراك..

واعدني، ولكن النزيف قد واعده قبلي..

فدائي

جلست أرقب طيفه يعبر الغرفة المظلمة، كان تائها، خائفا من مصير يريد أن يرسمه لسجينته، للحظة تخيلت أنه خائف أكثر مني، بداخلي إيمان قوي أنه لن يصيبنا إلا ما كتبه الله لنا، وأن ما أمر به الآن هو امتحان لمدى تشبثي بإيماني، ربما هي مجرد هلوسة إنسانة محبوسة بين أربعة جدران، إنسانة لا تملك إلا قلبا ضعيفا وفكرا تائها، عادة ما يسافر عبر عوالم جنونية ثم يعود.

بداخلي إحساس أن الله قريب مني، يرقبني، وينسيني سجاني ولو للحظات، لكن نظراته الغاضبة تعيدني لما أنا عليه ولسان حالي يسأل اللطف.. قال:

- لم أنت هنا؟ لم أتيت؟

- ظننت أنك ستساعدني لإيجاد مخبأ..

- مخبأ؟.. أتمزحين؟.. أنا المغضوب عليه من الجميع، من السلطة ومن العدو ، وحتى من الثوار

- لكنك الزعيم

- وكيف أكون زعيما وآخر كتيبة كانت معي ماتت تحت قصف مشترك.

لم أعد أفهم شيئا اختلطت الأمور كلماته كانت رموزا .. حاولت فك طلاسمها لكنني فشلت

- اريد الانضمام للفدائيين

- أنت؟؟؟؟.. هراء.. كل شيء هراء، لم يعد هناك فدائيون سيدتي، هناك فقط وطن مقسم وأحزاب وعدو يبيعنا الأسلحة لنقتتل.. ونسهل عليه مهمة ابتلاعنا في جوفه، لم يعد هناك لا فدائيون.. ولا مخابئ.. ولا حتى وطن.

أنا وشريكتي

لكم نحتاج لصديق أقرب إلينا من ذواتنا ، صديق نقتسم معه الفكرة وهي نطفة في مخيلتنا، يلطف الجو المحيط بنا ويحررنا من غربتنا، فيكون السند والعون لنا على ما قد لا يحتمله صدرنا.

وأنا اخترت أن يكون لي صديق، رفيق أناجيه ويناجيني، يكون أقرب إلي من ذاتي، يشاركني بسماتي ويمسح الدمع قبل أن يصل خدي، أحسه العين التي تحرسني وتحميني من صغائري. صديق تكون بيننا جمل معينة لا تقال لغيرنا، وسيلة لا يفهمها سوانا، حوار ولغة خاصة بنا نحن ..

صديقي سيكون فكرة في داخلي، أمنحه صفة الاستقلالية عني وأهبه كل الصلاحيات، ليكون الرفيق المطلع الوحيد على أسراري.

ولأني ديمقراطية بطبعي فإني منحته الحرية أن يختار لنفسه ركنا يستوطنه ويتكلم من خلاله. منحته فرصة للتفكير، وأكملت قراءة كتاب في يدي فإذا بضجة تملأ فكري:

- ماذا تفعل؟
- أزعجتك ربما
- لا عليك.. ما هذه الضجة
- بصراحة وبما أنك منحتني فرصة اختيار أي ركن فأنا اخترت هذا الذي لم ينفتح من مدة.
- كيف؟ (قلتها وبداخلي شيطاني يهدد بأن يتخلص من الفكرة كلها، لكنه فاجأني وأجاب):
- سأكون الشخصية الساخرة منك.

جحظت عيناي ربما لأنني اكتشفت هذه الشخصية التي لم أكن أعرفها من قبل، لكنني وبين القبول والرفض أجد قوة الفضول بداخلي تدعوني للاستمرار، خاصة وأن الفكرة في بدايتها، ويوم أملّ ما علي سوى التخلص منها وقتل فكرة،حسب علمي، لا يحاسب عليها القانون.

لم يكن ليهتم بما يدور بخلدي، فقد كان منشغلا بنفض الغبار عن هذا الركن المنزوي دون أن يعيرني أدنى اهتمام، أعجبني نشاطه وهو

يشتغل بهمة ونشاط ويضحك من كل هذا الحطام ويغني محاولا تقليد الأصوات باستخفاف شديد، ابتسمت لهذا الدخيل الذي لم يكن دخيلا واستسلمت لإكمال قراءة كتابي، وكلما تعالى صوته أشار إليّ معتذرا مكملا عمله متجاهلا لكل ما حوله.

لا أدري كيف غفوت على كتابي لأصحو وملامح صديقي يحاول تقمص ملامحي و أنا نائمة، ابتسمت نصف ابتسامة تحية له، لكنه عاد لركنه وارتمى فيه وبدأ يدندن بصوت يحاول تضخيمه، ثم أردف قائلا:

- ألا يمكنني أن أمتلك جسدا؟
- ماذا؟؟

لا أدري كيف أحسست أن الأمور بدأت تنفلت من بين أصابعي كرمل حار

- جسد، أي جسد حتى وإن كان من ورق أو من هواء أو من حديد

وبدأ يقلد مشيته وهو يتثاقل ويقهقه، لم يمنحني فرصة للرد وجلس يرسم شكله الجديد ويتكلم عن ميزة الجسد بالنسبة له ولي أيضا..

- لو كنت من هواء فسأرافقك في كل مكان ولن يراني غيرك أكلمك وأنت لا تستطيعين أن تجيبي وإلا لاتهموك بالجنون

وبدأ يقهقه عاليا.. أجبت غاضبة:

- لا لن ترافقني إلى أي مكان، ستكون حدودك داخل حيطان هذا البيت

أجاب بثقة من أحرز فوزا:

- المهم أخذنا الموافقة المبدئية من أنني أستطيع أن يكون لي جسد ولو من هواء.. لا عليك عزيزتي – همسها بصوت منخفض في أذني – سأكون معك وحدك هنا، أنا هواء والهواء يستطيع أن يحضنك.

ثم قهقه عاليا ..

أخجلتني الفكرة وما تلمح له، فقررت أن تكون خسارتي اقل

- لن تكون صديقي
- ماذا؟
- ستكون صديقتي وستكون من ورق
- واو.

بدأ يقلد مشية الفتيات بغنج زائد ويتظاهر بالخجل، ثم أردف:

- سأبدأ بتجهيز فساتيني فلا يمكن أن أكون أقل أناقة حتى لا يعتبروني خادمتك

وابتسم، وراح يرسم تصاميم فستانه الجديد وقصة شعره، فوجدتني آخذ مقصي وارسم له جسدا ورقيا على مقاسه وملابس من ورق، وما هي إلا ثوان حتى كانت صديقتي تجوب الغرفة جيئة وذهابا وتعبث في كل ملفاتي، ولأول مرة لم يزعجني الأمر فهي ليست بغريبة علي، إنها شريكتي ..

ماذا لو أتيحت لك فرصة ان تدخل مملكة الاحلام ليوم واحد، أن تكون ما تريد.. هل سترفض مثلا أن تكون غنيا.. ملكا.. عاشقا.. ما تريد

مملكة الأحلام

بينما كان رحيم يصلح الصوت بجهازه كطريقة مثلى للهروب من مشاغله اليومية وذكرياته التي تؤرق تفكيره وتحاصره من حين لأخر،اخترقت جهازه كلمات دافئة حالمة، شدته إليها، انساق وراءها، تساءل من الباعث؟.. لم يكن شخصا.. كان حلما.. ملاكا.. شده الأسلوب الأدبي؛ فرد بمثله وهو الذي لا تعوزه الكلمات، ومع كل كلمة كان يقترب أكثر... لم تكن امرأة، كانت كلمات وكلمات.. وكانت خيطا حريريا رفيعا دافئا كان أحوج الناس إليه.. اقترب واقترب، حتى صار أمام سور عال.. وقبل أن يفقد الأمل وجدها تدعوه للدخول. وقف لبرهة، التفت للماضي.. للذكريات، للأحزان وللآمال التي صدئت وهي تنتظر لحظة الانفلات، وفي غمرة الالتفات جاء صوتها حنونا كما لم يكن قالت:

- تعال
- من أنتِ؟
- أنا فردوس صاحبة مملكة الأحلام.. تعال وادخل من أي باب تختار، لكن قبل أن تدخل تذكر أنه حلم، مجرد حلم.

ضحك من سخرية القدر ولم يعبأ بالكلام.. هو حلم كأي حلم يطرق خياله، يشده بعيدا عن واقعه المؤلم.

دخل رحيم من كل الأبواب، ولأول مرة أحس أنه تحرر من ثقل السنين. اختار أن يكون ملكا، فكانت أميرته، ثم شاعرا، فكانت ملهمته، ثم كان وكان وكاااااان ،حتى صار مجنونا، فكانت ليلاه.

وعندما أدرك شهريار الصباح وسكتت فردوس عن الكلام المباح، استيقظ رحيم أمام جهازه وحيدا، وحيدا أكثر مما كان وأكثر من أي وقت مضى؛ فبدأ يبحث عن فيروزه، مملكته، حلمه، فردوسه، عن الحلم الذي انتهى دون سابق إنذار. ومرت الأيام مشى فيها رحيم مسافات ومسافات وسط الأشباح، وإذا بشبح هزيل حزين لا يكاد يدرك منه إلا الملامح.. اقترب.. تأمله.. إنها هي أميرتي،ملهمتي..

- لماذا أنهيت الحلم؟
- ألم يكن حلما؟.. كان صرحا من خيال فهوى

وقف أمامها يكاد يعاتبها فيغلبه الحنين، لاحظت حيرته، وهمست:

- ألم تسأل نفسك يوما ماذا كنت أفعل في تلك المملكة وحدي؟ أنا مثلك.. دخلتها معك وخرجت منها بخروجك.. تمنيت أن تكون ملكا وأنا مثلك تمنيت أن أكون أميرة.. تمنيت أن تكون شاعرا... وأنا تمنيت أن أكون ملهمة.. لم تكن تلك حقيقتي.. كان هروبا من واقع أمرّ من واقعك.

القرار الصعب

لم تكن إلا لحظة صفو انتظرها، لحظة لاكتشاف المجهول وتخطي عتبة طالما وقف أمامها. تساءل لبرهة كيف ستكون حياته بعدها، ثم أحس بالخوف، بصوت يدعوه للعودة، للرجوع إلى عالمه الهادئ الرزين. تذكر حياته الرتيبة، جرائده المبعثرة في كل ركن، وأعقاب سجائر تتنافس لتجد لها مكانا فوق الطاولة بين كتب شتى ومجلات أكثر. سرح ببصره ماسحا غرفة النوم، حيث الملابس المبعثرة كأفكاره، تذكر أمه وهي تعبر المكان، تتذمر بصوت لا يفهمه، ولكن يعي معناه، طالما دعته للزواج، "أنا؟.. أنا أتزوج؟"

يجيبها باشمئزاز وتعود هي لتنظيف المكان. ماتت دون أن ترى هذا اليوم، ولبرهة تخلى عن الكتب والفلسفات واستسلم للإحساس الشعبي المتوارث بداخله ورآها تسبقه لبيت العروس،

فرحة بقرار ابنها بالتخلي عن عالم العزوبية وقبول فكرة الزواج أخيرا. كانت الكلمات بداخله قوية، أيقظته من أحلام اليقظة ليجد نفسه أمام الباب.

لا يدري كم من الوقت مر وهو لم يتخذ بعد قرار النقر على هذا الفاصل، بين عالم اعتاد عليه وتعب منه، وعالم مجبر أن يدخل إليه. عاد الخوف يسيطر على مشاعره. قتل الابتسامة التي حاول رسمها على شفتيه. ماذا لو رفضوا، سؤال انتفض في وجهه، لم يفكر به من قبل. أيمكن أن يرفضوا؟.. من قال إنهم سيرفضون؟.. وماذا لو رفضوا؟.. سؤال تردد بداخله بجميع الصيغ المتشائلة.. فكر أن يعود أدراجه، ويعيد التفكير في الأمر، ويدرس كل الاحتمالات..

عادت شخصية المثقف تطفو من جديد ، وقبل أن يقرر وجد الباب يفتح أمامه. لم يعد هناك مجال للتراجع، حاول استدراك الموقف وتذكر ما كان ينوي أن يقول.

غرفة الانتظار

أكره الانتظار، وقاعات الانتظار.. أكره هذه العيون المركزة حولي وحول كل شيء يتحرك.. السكون هنا ضجيج قاتل يخنق الأنفاس ويجعلها تتسلل خارجة من الرئة أو عائدة إليها..

كل هذا والآلام تنخر فمي، ولولا أني قضيت الليل أحشو ضرسي بكل البهارات ومساحيق التجميل والحبوب المهدئة لما تقبلت هذا الوضع، خاصة وأن قدمي ملتفتان تحت الكرسي وأحس كما لو أن وزنهما قد تضاعف وأن الأكسجين قد تاه عن طريقهما، وأنا لا أستطيع مدهما للأمام منتعلة هذا الشبشب البالي..

والجالسون هنا ما شاء الله كأنهم جاؤوا لمقابلة تلفزيونية؛ فهده المرأة مثلا، أجزم أنها لو باتت ليلتها كما بتّ ليلتي، لما تأنقت بهذا الشكل المثير، وهذا الرجل الذي يجلس بقربها بهيئته الرزينة ونظرته الثاقبة والذي لا يبدو أنه يعرفها إذ يظهر عليه أنه رجل أعمال أو على الأقل موظف في مؤسسة بنكية.. ترى لماذا جاءوا إلى هذا المكان؟ وحملوا أنفسهم مشقة الانتظار، فهم لا يبدو عليهم علامات التألم أبدا، وإلا لما قضوا كل وقتهم يتتبعون حركات الجالسين..

في البداية، كنت أحس بخجل شديد كلما التقت عيني بعين أحدهم لكن الآن تغلبت على حرجي، واستطعت أن أراقب الجالسين المتألمين وغير المتألمين دون أن أعطيهم أدنى إحساس بالعزاء، ففي نهاية المطاف الأمر ليس مزعجا مادام قادرا أن ينسيني آلامي للحظة .

الفهرس

الإهداء..٣

"عيون القلب واختراق المسافات المحظورة".. الناقد حميد ركاطة..................٥

خطة التراجع عن قرار التراجع..٩

الدولاب...١٣

قلم أحمر..١٧

انسلاخات..٢١

المصارحة..٢٥

هواجس..٢٩

خطوط عمودية...٣٣

تخيلات.. ٣٥

عيون القلب...٣٩

الوثيقة الوهمية...٤٣

ضيفة العيد...٤٧

رصاصة الرحمة ٥٣
غرفة الصمت...٥٥
الخريف الأخير...٥٧
الانصهار...٥٩
طبل الحرية...٦٣
بلاغ عن طفلة ضائعة...٦٥
طفل صغير...٦٩
إحساس الأمومة...٧١
العودة إلى الماضي...٧٧
الفائز بالشهادة...٧٩
ولدي...٨١
فدائي...٨٥
أنا وشريكتي...٨٧
مملكة الأحلام...٩٣
القرار الصعب...٩٧
غرفة الانتظار...٩٩